دراسة نقدية تحليليـــة في كتاب "في الشعر الجاهلي" لطه حسين

أ. طارق بوحالة
المركز الجامعي بميلة
Bohala2011@hotmail.fr

ملخص البحث

مـا يلاحـظ علـى معظـم الكتابـات العربيـة والإسـلامية حـول الاستشراق هو تميزها بالموقف العدائي ضده والهجـوم عليـه بـدعوى أنـه من أقنعة الاستعمار البارزة.

غـير أن هـذه المداخلـة لـن تكـون منصـبة علـى تحليـل موضـوع الاستشـراق في شـكله العـام، بـل سـتركز علـى البحـث في أثـر الفكـر الاستشـراقي في بلـورة أهـم مقـولات المنـاهج النقديـة في دراسـة الأدب العربي،وسنفردها لدراسة مدى أثر الفكـر الاستشـراقي في مـنهج "طـه حسين"النقدي من خلال كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي صدر عام 1926، بغية وضعه تحت مجهـر النقـد والتحليـل وإبـراز أهـم مـواطن هـذا الأثـر الاستشراقي.

كمـا أن هـذه المداخلـة سـتقارن بـين مقـولات المستشـرق الإنجليزي"مرجليوث"وبين مقـولات "طـه حسـين" حـول صـحة الشـعر الجاهلي،لتحاول الإجابة عن السؤال التالي: هل تأثر طه حسين في منهج كتابه السالف الذكر بمقولات مرجليوث من خـلال مقالـه «نشـأة الشـعر العربي «،الذي نشره عام 1925 في المجلة الأسيوية الملكية.؟

OOO

مقدمة:

هناك من يرى أن ظاهرة الاستشراق قد تجاوزتها الأحداث ولم تعد تملك تلك الهالة الكبيرة التي طالما تمتعت بها في السابق من حلال أبحاث و دراسات النقاد و الدارسين و المؤرخين العرب من القرن الماضي، حيث جاءت هذه الدراسات إما لشرحه وإما للتعريف بأعلامه وإما لنقد أفكارهم أو تبيين سلبياته على الفكر العربي بمختلف ميادينه.

ومما يلاحظ على معظم الكتابات العربية و الإسلامية اتجاه الاستشراق هو تميزها بالعداء و الهجوم ضده بدعوى أنه من أقنعة الاستعمار البارزة .

غير أن كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد هو أول كتاب حاول أن يدرس هذه الظاهرة من منظور جديد معتمدا على النظريات الحديثة و المعاصرة بخاصة حفريات الخطاب التي دعا إليه المفكر الفرنسي :ميشال فوكو.

ولن تكون هذه المداخلة منصبة على تحليل موضوع الاستشراق في شكله العام،بل ستركز على البحث في أثر الفكر الاستشراقي في بلورة أهم مقولات المناهج النقدية في دراسة الأدب العربي،وسنفردها لدراسة مدى أثر الفكر الاستشراقي في منهج "طه حسين"النقدي من خلال كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي صدر عام 1926،بغية وضعه تحت مجهر النقد و التحليل و إبراز أهم مواطن هذا الأثر الاستشراقي.

كما أن هذه المداخلة ستقارن بين مقولات المستشرق الإنجليزي"مرجليوث"وبين مقولات "طه حسين" حول صحة الشعر الجاهلي،لتحاول الإجابة عن السؤال التالي: هل تأثر طه حسين في منهج كتابه السالف الذكر بمقولات مرجليوث من خلال مقاله «نشأة الشعر العربي «،الذي نشره عام 1925 في المجلة الأسيوية الملكية.؟

وحجتنا في ذلك أن كلا من مرجليوث و طه حسين قربين زمنيا .

1ـ مرجليوث وقضية صحة الشعر الجاهلي:

يعد المستشرق الإنجليزي «ديفيد صامويل مرجليوث" 1858ـ1940 من ألمع الأسماء الاستشراقية التي اهتمت بدراسة الأدب العربي القديم،فقد ..."كان أستاذ العربية بجامعة أكسفورد،حيث نشر كتاب "معجم الأدباء «لياقوت الحموي..."[1]

غير أن مقاله الشهي الذي نشره في المجلة الأسيوية الملكية عام 1925 بعنوان"نشأة الشعر العربي،وقد ترجمه إلى العربية المفكر العربي"عبد الرحمن بدوي" ضمنما ترجمه من مقالات لمستشرقين من مختلف الجنسيات و المدارس سواء أكانت فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية...في كتابه الذي حمل عنوان:"دراسات المستشرقين حول صحة الشعر العربي".

يحول مرجليوث منذ الصفحات الأولى لمقاله السالف الذكر أن يثبت قضية جوهرية- حسب رأيه -وهي أن الشعر العربي المنسوب إلى الفترة الجاهلية لا يعبر عنها،حيث يقرّ أنّه..."لا يمكن أن نستنتج من النقوش العربية أنه كان لدى العرب أي فكرة عن النظم أو القافية..."[2]

يبدو من خلال هذا الرأي أن مرجليوث لا يعترف بأن للعرب الجاهليين معرفة بالشعر،حيث يثير قضايا عديدة عبر مناقشته لجملة من الإشكاليات التي تتعلق بالفرق بين لغتي القرآن والشعر،وعدم صحةوسلامة رواة الشعر العربي مثل:حماد الراوي وخلف الأحمر وهذا من نجده أيضا عند طه حسين باعتباره محل دراستنا المتواضعة.

كما أن مرجليوث قد أثار قضية أخرى مفادها أن ما يلاحظ على شعر مجموعة من الشعراء في العصر الجاهلي أمثال: عنترة العبسي والحارث بن حلزة وغيرهم هو قربها إلى لغة القرآن والدين الإسلامي منها إلى لغة الحياة الجاهلية،إذ يعتبر أن..." الدين الوحيد الذي يمكن أن ينسب إليه الشعراء الجاهليون هو الإسلام...بل يبدو أيضا أنهم على معرفة وثيقة بأمور يؤكد القرآن أن العرب لم يعرفوها قبل أن يخبرهم بها..."[3]

وهذا دليل آخر أن مرجليوث يسعى جاهدا إلى التشكيك في صحة الشعر الجاهلي،إذ يرى أنه يتميز بوجود ألفاظ ذات مضمون إسلامي ولا يمكن أن تعبر عن الحياة الجاهلية ويذكر لنا أمثلة: "الرحمن"و"أمين"...

لهذا سنحاول أن نقارب بين هذه الآراء وأراء طه حسين في كتابه"في الشعر الجاهلي"

2- عرض كتاب "في الشعر الجاهلي"

لقد صدر هذا الكتاب لطه حسين عام 1926 ،أين أثار ردود أفعال عنيفة لدرجة أن صودر الكتاب من المكتبات، ووقف صاحبه أمام القضاء بدعوى أنه أساء إلى الدين الإسلامي،وضرب عرض الحائط الموروث الشعري العربي الذي كانت تحيطه هالة التقديس آنذاك.

و يعتبر الكتاب..." في منهج التأريخ للغة و الأدب وطرائق نقد النصوص وتصحيح نسبتها إلى منشييها وقد فتح الكتاب ـوهو يعالج مادته الأدبيةـ بابا واسعا في النظر إلى التراث ودعا إلى مناهج جديدة تدرس هذا التراث وتقومه..."[4]

و كما ذكرنا سالفا فقد قامت الهيئات المختصة في مصر بمصادرة الكتاب من المكتبات،ليعاد فيما بعد حذف بعض أجزائه من قبل طه حسين وإخراجه بعنوان أخر هو: "في الأدب الجاهلي" عام 1929.

و قد جاء كتاب في الشعر الجاهلي – محل الدراسة - في ثلاثة أبواب.

3ـ منهج طه حسين و تأثره بالفكر الاستشراقي

يعد الحديث عن منهج طه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي حديث بالدرجة الأولى عن مدى تأثره بالمنهج التاريخي الذي عرف ازدهارا آنذاك على يد مجموعة من الدارسين الفرنسيين بخاصة جهود " غوستاف لانسون"[5]... التي تدعو إلى الإقتداء بالمناهج العلميّة مهما كان مصدرها...

ولكن الأمر الذّي يدعو إلى التأمل هو عدم تصريح طه حسين أنه تأثر بالمنهج التاريخي؛حيث يصرح أنه يتبنى الشك الديكارتي بقوله :"لست أريد أن أقول البحث وإنما أريد أن أقول الشك،أريد أن لا تقبل شيئا مما قال القدماء في الأدب وتأريخه إلا بعد بحث و تثبيت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان..."

يحاول طه حسين جاهدا إيهام القارئ أنه يتبع المنهج العلمي في قراءة الشعر الجاهلي معتمدا على الشك الديكارتي، لهذا نجده يسعى عبر محطات كتابه إلى التشكيك في صحة هذا الشعر و الطعن في نسبته إلى الفترة الجاهلية.

وقد كانت حجته في هذا الطرح أن الشك هو السبيل الأنجع لدراسة علمية صحيحة وجديدة، فهو يرى أن على الباحث...أن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل، و أن يتقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما...[6]

انطلاقا من هذه الرؤية يذهب طه حسين إلى اعتبار مذهب القدماء في دراسة الشعر و الحديث عن الشعراء الجاهليين و تفسير أشعارهم و نقلها إلينا و تقسيمهم للأدب العربي إلى عصور ، عبارة عن ضرب العناية ...بالقشور و الأشكال لا تمس اللباب و لا الموضوع...

كما يذهب طه حسين إلى الموازنة بين مذهب القدماء و مذهب أنصار الجديد الذين يحملهم مهمة أصعب من سابقيهم،فليس الطريق مهيأة أمامهم كي يصلوا إلى الحقيقة.

إن من يطلق عليهم طه حسين أنصار الجديد و الذين يصفهم بدعاة المنهج العلمي المبني بالدرجة الأولى على الشك الديكارتي، هم أقرب المستشرقين منه إلى دعاة المنهج الديكارتي.

يرى معظم النقاد و الدارسين العرب الذين اشتغلوا على طه حسين أنه تأثر بالفكر الاستشراقي سواء التأثر المباشر من خلال أساتذته الذين درس عندهم في الجامعة المصرية أو الذين درس عندهم في فرنسا،أو من خلال قراءته لأعمال المستشرقين، غير أن أبرز الذين تأثر بهم على الإطلاق في طرحه النقدي محل الدراسة كما يرى ناصر الدين الأسد هو المستشرق الإنجليزي مرجليوث حيث يقول :"... و قد استقى الدكتور طه حسين أكثر مادته ـ حيث يستشهد ويمتثل بالأخبار والروايات ـمن العرب القدماء ،وسلك بها سبيل مرجليوث في الاستنباط و الاستنتاج و التوسيع في دلالات الروايات و الأخبار، فنحن إذن بإزاء نظرية عامة،لم نرها فيما عرضنا من آراء مرجليوث و لم يكتف بالإشارة إليها إشارة عابرة ، و أنما نص صريحا في عبارات متكررة تختلف ألفاظها و تتفق مراميها، و جاء الدكتور طه ح سين فلم يقنع كما قنع مرجليوث، بأن يدلنا عليها في مقالة أو مقالتين، إنما فصّل لنا القول فيها في كتاب كامل قائم بذاته..."[7]

و مما نجده متشابها بين طه حسين و مرجليوث هو حديثهما عن :

ـأ ـ أثر الدين و بخاصة القرآن في صياغة الشعر الجاهلي، فعندما عرضنا لرأي مرجليوث ف الصفحات السابقة من هذه المداخلة، سنعرض رأي طه حسين الذّي الحياة الجاهلية بكل ميادينها، بل القرآن هو الذي يعكس هذه الحياة و بصورة واضحة تماما حيث..."القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي، ونص القرآن ثابت لا شك فيه ..."[8]

ـب ـ اللغة العربية الي كتب بها الشعر الجاهلي فهي الجاهلية لا يمثلها الشعر الجاهلي كم يرى طه حسين حجته في ذلك ..." أن الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية و لا يمكن أن يكون صحيحا،ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئا كثيرا من الشعر الجاهلي قوما ينتسبون إلى عرب اليمن ، إلى هذه القحطانية العاربة الي كانت تتكلم لغة غير

لغة القرآن و التي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء : إن لغتنا مخالفة للغة العرب . التي أثبت البحث الحديث أ ن لها لغة أخرى غير اللغة العربية... و لكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف إلى شعراء هذه القحطانية في الجاهلية، لا نجد فرقا قليلا ولا كثيرا بينه و بين شعر العدنانية ..."[9]

عندما نقرأ هذا الرأي يمكننا أن نجد له مثيل عند مرجليوث الذي بدوره يعتقد أن للبنية الباطنية للعرب وجهين ، فبعد حديثه غن الدين ها هو يتحدث عن اللغة و علاقتها بالشعر الجاهلي، فهو يرى أن..." من الصعب أن نتصور وجود لغة مشتركة قبل مجيء الإسلام بهذا العامل الموحد، لغة تختلف عن لغات النقوش و انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية، فلا بد أنه كانت بين القبائل المختلفة، أو على الأقل مجموعات القبائل، اختلافات واضحة في النحو و الألفاظ..."[10]

إذن فهناك أثر بارز لطرح مرجليوث على رؤية طه حسين للشعر الجاهلي و اللغة التي كتب بها ، فكلاهما يرى أن اللغة العربية التي كتب بها الشعر الجاهلي هي أقرب للنص القرآني منه إلى النص الشعري الجاهلي.

وهناك من يرى أن طه حسين عندما يتكلم عن الأدب الجاهلي و اللغة يأخذ من آراء مرجليوث... وغيره من المستشرقين الذين أوغلوا في شكهم في الشعر الجاهلي معتمدين على الخلاف بيت لغة حميّر و لغة عدنان و قد أثبتت النقوش ذلك و نراه يلح في هذه و يؤكد أن هذا الاختلاف هو نقطة الانطلاق في الشعر الجاهلي، وأنه لا يمثل الجاهلية و الواقع الاجتماعي فيها...

لقد كان لأثر الفكر الاستشراقي وجودا واضحا في طرح طه حسين و رؤيته النقدية حول الشعر الجاهلي، فمن حاول أن يحاكم عمله النقدي " في الشعر الجاهلي" لابد أن يتحلى بالروح الموضوعية وعد السعي إلى مصادرة مجهوده بدعوى أنه قد شكك في بعض في بعض العقائد، لأننا في مداخلتنا هذه قد خصصناها لمناقشة منهجه في التأليف.

ورغم أن عمله هذا قد لقيّ ـ كما أشرنا أعلاه ـ هجوما عنيفا من قبل النقاد و الدارسين و حتى رجال الدين في الوطن العربي إلاّ أنه ليس هو أول من تحدث عن قضية انتحال الشعر فقد سبقه إلى ذلك بقرون "ابن سلام الجمحي" في كتابه **"طبقات فحول الشعراء"** .

فيرى عبد الرحمن بدوي أن كلام طه حسين عن "انتحال الشعر الجاهلي، و فساد رواته و رواياته و ما أضيف إليه أو حذف منه ـ هو كلام

سبق أن قاله القدماء و أشبع القول فيه علماء الأدب و اللغة القدماء منذ القرن الثالث و الرابع ، ويكفي المرء أن يفتح الصفحات الأولى من كتاب "طبقات فحول الشعراء "لمحمد بن سلام الجمحي "134ـ231هـ" ليقرأ فيه ما يلي :"و في الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع كثير لا خير فيه"..."[11]

كما أن هناك من المفكرين من يرى أن طه حسين قد حاول المزاوجة بين منهجين في دراسته للشعر الجاهلي ... منهج الشك الديكارتي المتمثل في أطروحة أن الشعر الجاهلي لا يعكس الحياة الجاهلية بحيويتها و ثرائها وعنفوانها كما يعكسها القرآن مثلا ...و هناك منهج علماء الحديث في نقد الرواية كما يتمثل في نقد محمد بن سلام الجمحي للشعر الجاهلي ، وقد ظلّ هذان المنهجان في حالة تجاوز سكوني مما أعطى مبررا لمهاجمة طه حسين بادعاء أنه نقل على "مرجليوث" من جهة إلى أنه لم يقل جديدا عما قاله ابن سلام الجمحي من جهة أخرى...[12]

قد يكون طه حسين قد قرأ لابن سلام الجمحي ـ وهذا أمر غير غريب عنه ـ و اطلع على منهج علماء الحديث في نقد الرواية و الرواة ، إلاّ أنه يبق وفيا لمنهج أنصار الجديد كما وصفهم ولا نظن أن المستشرقين يخرجون عن دائرة هؤلاء ، حتى وإن هو لم يصرح بهذا واكتفى بإحالة القارئ على أنه يتبنى منهج الشك الديكارتي الذي وصفه بمنهج أنصار الجديد.

-4- خلاصة:

يمكن لنا بعدما عرضناه من أراء حول منهج طه حسين في مشروعه في الشعر الجاهلي أن نقول بأن أراء المستشرقين تظهر جليّا فيه ـ رغم من نفى ذلك ـ خاصة ما تعلق بآراء مرجليوث حول صحة الشعر الجاهلي لأنه الأقرب إليه زمنيا من جهة ، و الأقرب إليه معرفيا و منهجيا.

فأغلب أراء مرجليوث المتعلقة بتشكيكه في الشعر الجاهلي ورواته يوجد لها مثيل عند طه حسين بخاصة ما تعلق بعلاقة الشعر بالدين و باللغة وبالسياسة

ورغم ما تميز به طرحه من ثغرات منهجية يعود سببها إلى مغلاته في التفوق لمنهج الشك الديكارتي من جهة وتأثره بمهج المستشرقين في دراسة الأدب العربي من جهة أخرى، نذكر من بين هذه الثغرات وقوعه في : الاستقراء الناقص ، و المبالغة و التعميم و الانتقائية... إلا أن منهجه و دعوته إلى إعادة قراءة الموروث قراءة علمية و موضوعية تبقى ذات أهمية كبيرة بخاصة في دراساتنا المعاصرة.

وهـذا مـا يعكـس أن للاستشـراق أيضـا دورا إيجابيـا في إثـراء منـاهج الدراسات النقدية داخل المنظومة المعرفية والفكرية العربية الحديثة، إضـافة إلى امتداد تأثيره حتى أيامنا هذه.

هوامش:

[1] - ساسي سالم الحاج، الظـاهرة الاستشـراقية وأثرهـا علـى الدراسـات الإسـلامية، مركـز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ط 1 ، 1991، ص142.

2 عبد الرحمن بدوي: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط1، **1979، ص 91.**

3 المرجع نفسه، ص113.

4 طه حسين : في الشعر الجاهلي، دار النهر للنشر والتوزيع، الدقي، مصر، ط 2 ، 1996، ص7.

5 عبد المجيد حنون : الأنسونية و أثرها في رواد النقد العربي الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط/ 2004، ص 58.

6 طه حسين، المرجع السابق، ص 7.

7 سيد بحراوي : البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، دار شرقيات، القاهرة، ط 1 ، 1993، ص 40.

8 ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1987، ص ص 379- 380.

9 طه حسين، المرحع السابق، ص 57.

10 المرجع نفسه، 58.

[11] عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص 5.

[12] نصر حامد أبو زيد : النص و السلطة و الحقيقة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط 4، دت ، ص 32.